

خواطر نورانية مع قول الحق تبارك وتعالى :
﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ
قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ الآيات

أخى : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد .. فلقد سألتني عن
تفسير هذه الآية الكريمة ، ولكي نتعرض لها بإلقاء ضوء على ما اشتملت عليه
من معان لا بد لنا أن نتعرض ونذكر الآيات السابقة . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ
الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ الآية .

إن هاتين الآيتين سابقتان للآية الكريمة التي أشرتم إليها في خطابكم إليّ ،
وقد أشرت إليهما لما لهما من الصلة بالآية الكريمة ، فقد ذكر الله عز وجل
خلقه للسموات والأرض بالحق ، ولما كان إبراهيم عليه السلام رسولا من الله
إلى عباده ، وداعيا إليه ، لا بد له من العلم والمعرفة التامة الكاملة بالحق وصفاته
وآثاره على مخلوقاته التي يراها ويشهدها المدعوون إليه وهم الذين يعيشون في
دائرة الملك ، وقد كشف الله لرسوله ما غاب عن هؤلاء ، من أسرار ربوبيته
لتكون الدعوة إليه نافذة إلى قلوبهم وعقولهم فعالة بآثارها في حياتهم فيؤمنون به
سبحانه استجابة لدعوته التي جاءت إليهم من مالك الملك ذى الجلال
والإكرام . فالملكوت أعظم من الملك باعتباره مصدر الملك والحقيقة التي
ينبعث منها الملك : فالملك عالم الشهادة ، والملكوت عالم الغيب وما يتعلق بعالم
الشهادة من أعمال الخلق ، وما يتعلق بعالم الغيب من أعمال الخالق : فالملكوت

كلمة جامعة لأسماء الله وصفاته وما كان وما سيكون من أمره تعالى : قال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ : البدن من عالم الملك ، والروح من عالم الملكوت ، قلب الإنسان من عالم الملكوت ، وجوارحه من عالم الملك ، ولذلك تكون رؤية الملكوت وشهوده من صفات القلب والروح والعقل : قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ ولما كان القلب هو محل اليقين فالرؤية التي حصلت لإبراهيم عليه السلام كانت بصيرية وإدراكية على أعلى مستويات العلم والمعرفة ، فلما تحققت له الرؤية تحققت معها المشاهدة البصيرية والمعانية الروحية فتعرض إلى ما فوق ذلك بالأسلوب الذي تعلمه وشاهده طريقا وسلوكا إلى إعلاء كلمة الله ، وإقناع المجادلين والمعارضين وهدايتهم إلى صراط الله المستقيم ، وقد كانوا يعبدون الكواكب ويؤلهونها ، فلو دخل عليهم بغير أسلوبهم لما عبثوا به ولا بدعوته .

فلما جن عليه الليل وقت ظهور هذه الكواكب وقف معهم محاذيا لهم ليحسبوه معهم أو مشاركا لهم فيما يعبدون فلما تراءى لهم الكوكب قال عليه السلام : هذا ربي . ولم يقل هذا ربكم لعلمه بأنه إذا قال ذلك نبذوه ولم يلتفتوا إليه ، فقال هذا ربي بلسانه وقلبه برّبه ومعه في ملكوت السموات والأرض ، وقد كان هذا شأنه لا يقول لمخلوق مثله : — هذا ربي — وإن قال فإنما يقول مخاطبا ربّه الذي خلقه وسواه لأنه يعيش في جو الملكوت الرباني الذي حجه عن شهود كل ما سواه ، فالذين سمعوه ظنوا أنه ربّ هذا الكوكب الذي عبدوه مع العلم أن الإشارة منه كانت إلى ربه لا إلى الكوكب المعبود . فالعالم عالمان : روحاني وجسماني ، وإن شئت قلت : حسّي وعقلي ، وإن شئت قلت : علوي وسفلي ، والكل متقارب وإنما يختلف باختلاف الاعتبار في العبارات ، فمن تكشفت له الحقائق جعل المعاني أصلا والألفاظ تابعا ، وأمر الضعيف بالعكس ، إذ يطلب الحقائق من الألفاظ . وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وللعلم أذكر لإخواني أن العالم الملكوتي عالم غيب إذ هو غائب على الأكثرين ، والعالم الحسّي عالم شهادة إذ يشهده

الكافة ، والعالم الحسى مرقاة إلى العقلى ، فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد الطريق إليه ، ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى ، ولولا هذا الروح الذى نفخه فى الإنسان لما كان ثمة اتصال ولا مناسبة بين العبد وربّه فى التعرف عليه وسلوك الطريق إليه . قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ . ولما كان عالم الشهادة مرقاة إلى عالم الملكوت ، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقى ، وقد يعبر عنه بالدين ، وبمنازل الهدى ، فلو لم يكن بينهما مناسبة واتصال لما كان الترقى من أحدهما إلى الآخر ، فالله الذى وسعت رحمته كل شىء خلق العالمين ، وخلق الإنسان من روح وبدن ليكون منه الإيمان به والتعرف عليه . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فجعلت الرحمة الإلهية عالم الشهادة على موازنة عالم الملكوت ، فما من شىء من هذا العالم إلا وهو مثال لشىء من ذلك العالم ، وربما كان للشىء الواحد من عالم الملكوت أمثلة كثيرة من عالم الشهادة ، ومن الأمثلة مطلق الحياة فى الدنيا ، ومثلها فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ وكذلك الشأن فى الجنة ومثاءها بالنسبة للدنيا وما فيها من المتاع ، ففى عالم الملكوت جواهر نورانية شريفة علوية تعرف بالملائكة تفيض بالأنوار على الأرواح البشرية ويكون لها مراتب فى نورانياتها متفاوتة فبالحرى أن يكون مثالا من عالم الشهادة الشمس والقمر والكواكب والسالك للطريق يتدرج أولا وينتهى إلى ما درجته درجة الكواكب .

وكذلك يترقى فى الأنوار حتى ينتهى إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى ، ولكنه قابل للزوال ، فمن يقول غير خليل الله بعد هذا : ﴿ وَجْهَتْ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

والله سبحانه منزّه عن كل مناسبة ، وهو الحق ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . وقد سئل الرسول ﷺ عن نسب الله فأنزله الله سبحانه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ... السورة . فالتقدس والتزّه عن النسبة نسبته ، ولذلك لما قال فرعون لموسى عليه السلام ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ كالطالب

للماهية لم يجبه عليه السلام إلا بتصرفه بأفعاله : إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل فقال : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فقال فرعون لمن حوله : ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ كالمكر عليه في عدوله في جوابه عن طلب الماهية ، فقال موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ فنسبه فرعون إلى الجنون . وقد وصف الله رسوله بالسراج المنير يعنى بذلك روحه الذى هو من عالم الملكوت . وقد انتهى بهم الخليل إبراهيم عليه السلام إلى الشمس التى تعتبر من أكبر الكواكب المرئية لمن في عالم الشهادة وقد أفلت ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ثم انتقل بعد هذا إلى بيان الحقيقة التى تكشفته له فدعاهم إلى معرفة الله وعبادته وذلك بقوله : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ / وقد علم الناس بعد هذا البيان مراد إبراهيم عليه السلام في قوله : هذا ربي . وعلم المؤمنون أنه تنزل بلسانه إلى مستوى الجاهلين من فوق عبادة الكواكب إلى عبادة الله ، وأن هذا التنزل بأمر الله الذى أراه ملكوت السموات والأرض . قال تعالى : ﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ولما تكشف الأمر وظهرت الحقيقة واضحة جليلة حاجه قومه . قال تعالى : ﴿ وَحَاجُّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

أخى لقد تبين بعد هذا المراد بالملكوت ، ووضح التأويل ، ووضح معنى الرؤية والمقصود بها ومنها . والله أعلم بمراده ، وفوق كل ذى علم عليم .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
